

وبقولهم إن قوى النفس الإنسانية متحدة مرتبط بعضها ببعض .
ثم هم يذهبون في التربية الخلقية إلى أن الخير يجب أن يعمل
حبا في الخير ، لا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب ، لأن هذا
الخير المحض هو السعادة ، ويقرر المؤلف أنهم سبقوا بهذا الرأي
الفيلسوف الألماني (كانت) الذي بنى فلسفته الأخلاقية على أن الخير
يجب أن يعمل لذاته . ثم يمرض المؤلف رأيهم في الفضيلة وتأثرهم
بأرسطو في أنها وسط بين رذيلتين .

وبعد ، فهذه لمحات أو قطعات سراع من هذا البحث المتمتع
القيم ، وكانت آراء إخوان الصفاء زهرات مبهترات ، فجعلها
المؤلف في طاقة منسقة كانت هذا الكتاب ، ومن ذا الذي
لا يهفو نفسه إلى أن يستمتع من هذه الطاقة ينظرات وسبحات؟
أحمد محمد الحوفي

زقاق المـدق

(قصة للأستاذ نجيب محفوظ)

هو اللوحة الحية الرائعة التي رفعت عنها ريشة الفنان البارح
الأستاذ نجيب محفوظ . وقد بمجب القارئ من ناقد يفتح مقال
تقدم بهذا المديح الجارف ؛ ولكن مهما يكن الناقد مسرفاً في
تزمته ، فإنه إزاء نجيب لا يملك غير المديح التدفقي يجري على قلبه
لا يقف في سبيله أي عرض من عوارض التوقر التي تتركب النقادة
بل إنه يجد خلف هذا الاندفاع ما يشجعه على المضي في السبيل
التي يسلك حتى يريح ضميره الأدبي مما يحسه نحو هذا النابضة
الفنان ... وقد أصبح الهدم في أيامنا هذه بضاعة سهلة ، يسومها
كل محاول للكتابة ... يظنون أن الشتيمة جراءة ... يا هؤلاء ا
إنكم إذ تشتمون تظهرون بمظهر الجراءة حين لا جراءة لديكم ،
لأن من تشتمون لا يملك أن يلحق بكم أذى . ولكم إن
مدحتهم استهدفتهم لقول القوم : إنهم يتملقون . وما أجراً من
يمرض نفسه لهذه القالة ... وهأنذا أمدح ... لا عن رغبة في
إظهار جرأتى ، فلن يظن بي أحد تملقاً ... لكن رغبة في أن
يكون الحق - حتى ولو كان مديحاً - هو الحكم الوحيد
الذى تخضع له ضمائرنا ... إننى أعلن في يقين راسخ أن نجيباً
أصبح في القمة الشاهقة التي يمتلكها كبار كتاب القصة المصرية .

دار العلوم وثقافته الغربية في جامعة لندن ، ثم تمزج يبحث قيم
مبتكر عن آرائهم في التربية .

عقد المؤلف الفصل الأول لدراسة الحياة السياسية في القرن
الرابع ؛ لأنهم ثمرة عوامل عدة منها الحالة السياسية « والكائن
المستقل عما قبله وما يمدده والذي لا يتأثر بشيء مما حوله ولا يتأثر
بشيء مما سبقه أو أحاط به - لا عهد للعالم به حتى اليوم ،
فالمصادفة عمال » .

ثم عقد الفصل الثاني للحياة العقلية ، فتكلم عن السريان
وأثرهم ، وعن نشأة الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام ، وأثر الفلسفة
اليونانية في العقل العربي ، وخلص من ذلك إلى أنهم تأثروا
بالكندى في فلسفته الطبيعية ، وبالترجمين وآرائهم ، وبالفارابي
في إحصائه للعلوم ، حتى وضعوا رسائلهم التي تشبه دوائر المعارف
بالنسبة إلى زمانهم .

ثم تتوالى الفصول بعد ذلك عن إخوان الصفا ، وزمانهم ،
ومكانهم ، ونظام جماعتهم ، ومذاهبهم ، وفلسفتهم ، ورأيهم في
النفس الإنسانية وفي التربية ، ومروضة عرضاً علمياً واضحاً مستخلصاً
من رسائلهم .

ويجمل بنا أن نعرض ببعض آرائهم التي استخلصها المؤلف
من رسائلهم ، فهم مثلاً يدينون بخلود النفس بعد أن تفارق الجسد ،
ويوازن المؤلف بين رأي أفلاطون في (الجمهورية) وفي
(جورجياس) ، ثم بين الرأيين في خلود كل نفس وبين رأي أرسطو
في خلود النوع الإنساني . وهم يذهبون إلى أن البعث إنما يكون
بأحوال تطرأ على النفس بعد انسلاخها من الجسد ، ويقولون بخلود
العالم ، ويتساءل المؤلف : كيف يتفق هذا الرأي المخالف للدين
الإسلامي مع آيات القرآن الكريم ؟ ويورد تفسيرهم لآيات البعث
تفسيراً قائماً على التأويل ، ويحكم بأن هذا تعسف وتكلف . ثم هم
يذهبون إلى أن العلم دعامة في صرح الأمة ، وعلى الآباء أن يتخيروا
لبنيهم المعلم الصالح المستنير المتجلى بفضائل عذوها والبرأ من رذائل
أحسوها ، والمعلم كالأب له على تلميذه حقوق الأب .

وتكلموا عن التليذ والمنهج الدراسي الملائم له وطريقة تحصيله
للعلم ، واهتموا باستخدام الحواس في التحصيل اهتماماً زائداً
في مواضع شتى ، وسبقوا برأيهم (بستالوتزى) في عنايته بالملاحظة
والإدراك الحسى ، وسبقوا (هربارت) في نظرية الاستطلاع ،

وأعدت نهاية الحرب الحلاق النازح للفنى إلى الزقاق حيث
يوجد فتاته وقد أصبحت ذات ثراء واسع سكب عليها ليها ، فهو
يساعد أخاها في قتلها .

وقد كان للظروف الطبيعية التي يمر بها كل قوم دور في
الرواية . فترى شاعر الرماية يضم قيثارته ويخرج من قهوته
الأخيرة بعد أن ابتاعت « راديو » وأصبحت في غنى عن قصصه
التي حفظها جميع رواد القهوة .

ويمتاز نجيب برسم شخصياته كما يخلقهم الله . فترى في
الشريير خيراً وشرأ . ولكنه يغلب فيه ناحية الشر على الخير ،
وترى في الخير شرأ وخيراً ، ولكن خيره غالب على شره .

ولنأخذ مثلاً للشخصيات الخيرة في الرواية الشيخ رضوان
الحسيني فترى الخير فيه غالباً . فهو الذي يلجأ إليه سكان الزقاق في
الملمات . وهو المثل الذي تشير إليه الأمهات إذا شئن أن
ينصحن أبناءهن .. ولكنه مع هذا شرير مع أهل بيته ، يفرغ
فيهم ما يكتظمه من غضب في مخاطبته لأهل الزقاق . أما الشخصيات
الشريرة فهي كثيرة ؛ ولكن لنأخذ مثلنا القهى ، فهو رجل
ذو أمزجة مختلفة كلها شاذ يدعو إلى الاستنكار الشنيع . ولكنه
مع هذا لا يطبق أن يبذل وعداً بالصلاح حين يطلب إليه الشيخ
أن يبذله . فهو رجل لا يمد دون تنفيذ .

لن أحاول الكلام عن جميع الشخصيات التي رسمها الأستاذ
نجيب ، فهي - كما قلت - كثيرة ، ركاها بطل ؛ ولكن ثمة
شخصية رسمها نجيب حاد في لمة منها عن طريق كنا نتنظر أن
تسلكه ، هي شخصية صاحب الوكالة . وهو بك كبير في
السن ، كان يأمل أن يتزوج من فتاة الزقاق . وكم كان الأستاذ
نجيب موفقاً في عرضه لهذا الحب المجيب بين الغسق والضجى .
ولكن قبل أن يتم الزواج سقط الرجل مريضاً ، ولج به المرض ،
ثم شاء له الله الشفاء وكنا نتنظر أن يقوم من مرضه مؤمناً بالله ،
شاكرآ له ، ولكن الأستاذ نجيب أقامه ساخطاً على الدنيا ،
ربما بها ، كافرآ بنعمة من شفاء ... ومن الناس من يصاب
بهذا ... وكل ما لاحظته أننا كنا نتنظر غير ذلك ... ولا ضير
عليه إذا أخلف ظننا .

وبعد . فلا يسمنى إلا أن أقدم للحياة المصرية المصرية كل
تهنئتي أن وفقت إل قصاص كنجيب ، رسمها فيترك منها
للأجيال القادمة صورة ولحمة العالم جلية المارف .

تروت أباطه

واضح من العنوان أن القصة قد أخذت مسارها في أحياء
وطنية خالصة ... ولكن الغريب في أمر هذه القصة أن الأستاذ
نجيب لم يطارده شاباً بذاته من شبان الدق ليجمله بطل قصته ،
ولم يجرح خلف فتاة معينة من فتيات الزقاق ليقم منها الشخصية
الأولى في القصة . لم تكن شخصية البطل آدمية ، بل كانت
الزقاق أجمه بما يحويه من مشايخ وكهول وفتيان ، وما يحويه
أيضاً من مجرماتصايبية ، وكهلة تريد الزواج ، وفتاة تستعرض فتیان
الزقاق .. كان بطل القصة هو الزقاق .. كان لكل شخص قصته
وصورته . . . ولكل مهاد من مهاد الزقاق رفاقه بكونون رسمه
ويروون روايته .. ثم كان لكل قصة نهايتها ..

إن زقاق الدق هي القصة الأولى من نوعها في الأمانة العربية .
إذ جرى كتاب القصة على أخذ شخص أو شخصين ينسجون
حواله أو حولها قصتهم نسيجاً لحنه أشخاص آخرون . أما أن
يكون كل شيء في القصة بطلا ، فهذا نوع جديد في القصة
العربية . ونجيب يارع كل البراعة حين يظل ممسكاً بقياد القصة
بين يديه لا يدع مجالاً لها لتفلت منه ، حتى يصل بكل شخصية
خلقها إلى النهاية التي أرادها .

ومجيب أن يستقيم له هذا الأمر مع هذا الحشد الهائل من
شخصيات روايته ... وقد انتفع الأستاذ نجيب بكل الظروف
التي أحاطت بههد القصة . فكان للخرب دور كبير في الرواية .
فهي التي مهدت السبيل لابن القهى أن يكون غنياً يستطيع أن
يذهب إلى السينا ، وأن يمضى بين رفاقه مزهواً بعيرم بيقائهم على
حالتهم لا يبذلون في سبيل « التريش » مجهوداً . وما زال بهجرته
حتى حدا بالحلاق أن يشد الرحال إلى الإسماعيلية فيسمل « بالأرنس »
يجمع أموالاً تليق بفتاة أحلامه وفتاة الدق التي خطبها قبل
السفر .. والحرب هي التي هيأت للفتاة أن تكون « ارنست »
وزرى نجيباً وقد أنشأ مدرسة قائمة بذاتها لتعليم ارنستات الحرب
كيف يأخذن المال من « جونى » وزرى معلم المدرسة وقد رسمه
نجيب رسماً هجيباً ... مزيجاً من الشدة واللين ، ومن اللطف
والفظاظة . وإن كانت المدرسة حقيقة سمع بها نجيب ، فتسجيلها
في قصته لنتة جميلة . وإن كانت بذت خياله فهو رائع إذ ينشأها .
وكا أفاد نجيب من الحرب ، أفاد من نهايتها أيضاً .. فأخرج
العامل التمجرف من عمله . وأطلقه سكيراً ، هاتماً على وجهه ،
ثم قاتلاً لأخته من الرضاة التي أصبحت في نظره جريمة العفة .